انعكاس

لا أدري سرّ انجذابي للمرايا، هل هي مجرد عادة نسائية، أم أن هناك شيئًا أعمق يجذبني نحوها، في بيت جدّي كانت هناك مرآة بلجيكية الصنع في إطار من أرابيسك مطعم بالصدف، تتوسط غرفة تحتوي على صالون من الأرابيسك المطعّم أيضًا، كانت مرآة ضخمة تعلو.. حتى تكاد تلامس سقف الغرفة الشاهق الارتفاع كسائر البيوت القديمة، وكان لها حرم خشبيّ؛ لتوضع فيه نباتات الظلّ، التي تنمو بمعدلات غير طبيعية، ولكن لم يلحظ أحد هذا الشيء إلّا أنا؛ إذ لم أتوقف عند هذا الموضوع، فالمرآة كانت مهيبة وقد تكون مخيفة، أستشعر شيئًا تجاهها منذ كنت صغيرة، كنت أخاف من ارتفاعها، حين أنظر اليها وأتابع النظر إلى أعلى بقامتي الضئيلة، أحيانًا، كان ينتابني شعور، بأنها ستبتلعني في داخلها.

كانت غرفة الصالون تستقبل الضيوف المهمّين والمسافرين، وكان محظورًا علينا اللعب فيها أنا وأبناء خالي، لتظلّ مغلقة أغلب الوقت، اللّهم إلى أن يتمّ

تنظيفها وتهويتها مرة أسبوعيًّا مع سائر غرف المنزل، كبرنا ومات الكبار، وسكن أبناء خالي بيت جدي، ولم يعد هناك ضيوف، فصارت غرفة الصالون هي غرفة المعيشة التي نتحدث ونسهر فيها، ونلعب الورق وغيرها من الألعاب في الليالي الصيفية.

ابن خالي الكبير شاهين دائمًا ما يسافر لدواعي العمل إلى بلدان مختلفة بغرض التجارة، دائمًا ما كان يجلب معه كتبًا وألعابًا غريبة من كل بلد يزوره، كان مولعا بكل ما هو غريب وطريف، هذه المرة كان مختلفا حينما عاد، يظهر عليه الإرهاق والتعب والتقدم في العمر، ولقد فسّرنا ذلك لكثرة أسفاره، تحدّثنا كثيرًا ورحبنا بصديقه، الذي جاء ليسلّم عليه، والذي تربّى معه منذ الطفولة، وعددناه واحدًا من أهل البيت، وإذا بشاهين يفاجئنا بلعبة أحضرها معه من ماليزيا، تسمّى بلعبة الخيط والمثلث، وهي عبارة عن مثلث كتب علي زاويتيه كلمة Yes و No والمثلث مربوط من أعلاه بخيط أحمر، اللعبة تشبه لعبة «ويجا» الشهيرة، ولكنها أبسط، البائع أخبر شاهين بكلمات، يقولها ثم يسأل أي سؤال، فيدور المثلث، ويتوقّف تجاه الشخص

بالإجابة بنعم أو لا، لم نصدقه، وأخذنا نضحك ونسخر منه ومن الرجل، ولكنّه أخبرنا في جدية أنّه قام بتجربة اللعبة، وأنّها حقيقية.

تعجبنا من جديته وانزعاجه، فآثرنا لما له من مكانة عندنا، أن نختصر الموقف، ونجرب اللعبة، وبالفعل تحلّقنا في دائرة على الأرض بجوار المرآة الكبيرة؛ حتّى إن صورتنا كانت منعكسة عليها، بدأ شاهين يتلو الكلمات، وبدأ المثلث يدور ببطء أولًا، ثمّ بشدة ثم توقّف، ونحن نراقبه مذهولين، نظر إلينا وإلى زوجته وقال: «الآن يمكنكم أن تسألوا ما تريدون»، فتنوّعت الأسئلة بين «حتغني ولا لأ، حأنجح ولا لأ، خطيبتي بتحبني ولا لأ، وفي كل مرة يدور المثلث ويجيب بنعم أو لا، ونحن نضحك ساخرين على الإجابات.

حتى جاء دوره.. لحظة.. لماذا تغيّر انعكاسه في المرآة، ولماذا تبدل لونه إلى الأحمر الناري، الكلّ ينظر للمرآة، ولم يلحظ ما ألاحظه أنا، أحببت أن أنبهّهم، وقد بدأ الخوف يتملكني، إلّا أن شاهين بدأ يتحدث بجديّة مخيفة، ويسأل: «هل زوجتي تخونني أم لا؟» صعقنا

وصعقت زوجتهّ! ولكنّ أحدًا منا لم يجرؤ على النطق، وكأن الخرس ألجم ألسنتنا بلجام من حديد، وانتظرنا إجابة المثلث لتأتي الإجابة «بنعم»، صرخت زوجته مستنكرة، وهي تنعته بالجنون، وضعف العقل في حال تصديقه لهذا «العبط»، ونحن نستوعب حجم الكارثة، ونحاول أن نغير الموضوع، أو نسحب المثلث من شاهين، وننهي هذا الهزل والعبث، إلّا أنّه كان يزداد تشبثا به، ويصرّ على سؤال المثلث مرة أخرى عن كلّ من في الغرفة، إذا كان فيهم الخائن أو لا، ومازال انعكاس صورته يزداد حمرة، حتى أنني رأيت دخانا ينبعث من جسده ويشكل هالة عجيبة تشبه ظلًّا أسودا، حاولت أن أنبهه وأنبه الآخرين لكنّني فشلت، أخذ شاهين يسأل عن اسم... اسم... والمثلث يجيب بـ: لا، حتّى وصل إلى اسم صديقه، فأجاب المثلث بنعم، هنا ساد صمت ثقيل لم يقطعه إلّا صوت صديقه، وهو يصرخ ويصرّ على الرحيل، وإذا بشاهين يمسك به، ويجذبه من عنقه محاولًا قتله.

تحلّقنا حولهما، نحاول الفصل بينهما، إلّا أنّ قبضة ابن خالي كانت مميتة تمامًا على رقبة صديقه، الذي كان

يحشرج حشرجة شرخت قلوبنا، ونحن نحاول إنقاذه، في الوقت الذي لمحت مشهدًا غريبًا: الهالة الشيطانية السوداء كانت تتصارع أيضًا مع هالة بيضاء صراعًا لا يقلّ في شراسته عن صراع ابن خالي وصديقه.. مرّ وقت غير محسوب ولكنّه وقت ثقيل وطويل وإن قصر، حتى غلبت الهالة البيضاء الهالة السوداء، هنا سقط شاهين مغشيًّا عليه من دون أيّ مقدمات، ونحن في ذهول.

بأعصاب مهلهلة حاولنا أن نَطمئنَ عليه وعلى صديقه، الذي كاد يلفظ أنفاسه، بكت زوجته، وأخذت تبرّيء نفسها، ونحن نشفق عليها، ورحلوا جميعًا، وهم يحملونه لغرفة من الغرف لاستدعاء الطبيب، وتركوني وحدي أقف أمام المرآة متسائلةً عن صدق ما رأيته، وإذا بي أشعر بحرارة ودوّار، وكأنّني غبت عن الوعي برهة، وفتحت عيني، وأنا أستعيد توازني.. وجدتني أقف أمام المرآة، وأبناء خالي وزوجة شاهين وصديقه يتحدثون، ويضحكون، وإذا بشاهين يفتح باب البيت، ليهرولوا جميعًا لتحيته، وهو يخبرنا أنّه أحضر معه مفاجأة جديدة.